ليبيا إلى أين ؟

وأنت سيدى الرئيس القذافى ماذا تريد بهذه القومية العربية؟

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع:

نعم سوف أظل عربيًا .

ولن أكف عن أن أصرخ بهذه العبارة حتى لو كف الجميع عن التغنى بها وتنكر الجميع لدلالاتها ، إنها جوهر الوجود ومنطق الحياة .

لقد مرت بنا فترات كنا نرى فيها زملاءنا فى العروبة يتنكرون لأصلهم ، ويتصورون أن الحديث عن أصلهم التركى ، أو عن انتمائهم المزعوم الأسبانى ، يجعل الآخرين يعتقدون بصدق هذا القول إن صفتنا العربية ترتسم على وجوهنا ، تخط الملامح ، وتنبض بالخصائص ، حتى أن الفرد منا لو نزع ملابسه وبدا عاريًا فإنه لن يستطيع أن يخفى أصله العربى وانتماءه إلى ذلك العالم الذى يهرب منه .

ولكن لماذا الهرب ؟ هل الهزيمة كما حدث فى عام 1967 ؟ ، أو لتقاعس كما سجلته أحداث لبنان 1982 ؟ وهل هذا الهرب يعنى أن الهزيمة لم تعد لصيقة بوجودنا ؟ الرجولة هى أن نتعلم من الهزيمة . أليست السياسة هى أن تقع وتقع ثم تسقط وتسقط ولكنك لتود دائمًا فى كل مرة لتقف على أقدامك من جديد ، وتبدأ المسيرة من جديد ، حتى لو استندت إلى خصمك وعدوك لتعود منتصب القامة لتستمر فى قصة الكفاح ، تكتب فيها صفحة أخرى بقوة ثباتك وصدق إيمانك ؟

تعلم من الخبرة ، هذا هو جوهر العمل السياسى .

نعم يا سيدى العقيد معمر القذافى ، الممارسة السياسية هى أخطاء علينا أن نتعلم منها ، وشطحات علينا أن نعى معناها ، وسقوط علينا أن نتخطاه بوثبة عملاقة صادقة ومؤمنة .

(*) مجلة " L Avant Grade Arabe " الطليعة العربية، فرنسا العدد 94، فى 25 شباط-مارس- 1985.

obeikandi.com

ولكن لماذا نبدأ بالنتائج ولا نجعل منطلقنا المقدمات ؟!

أ – مما لا شك فيه سيدى العقيد أنك تمثل ظاهرة فى عالمنا العربى ، وأنك تمثل ظاهرة لم تفهم ، ولن نستطيع فهمها ، إلا بكثير من المعاناة ، وذلك دون الحديث عن تبريرها .

فهذا العالم الذى نعيشه أى العالم العربى ، هو عالم التناقضات .

وأنت سيدى العقيد ونظامك تعكس بدرجات عميقة هذه التناقضات ولكن ألا تتفق معى أن هناك من التناقضات ما لا يستطيع أى محلل أن يتجاهلها ، مهما بلغت به روح التسامح ؟ تناقضات يجب أن تقف إزاءها بكثير من الحذر ، بل والريبة ، حيث إن تلك التناقضات تلغى منطق الحركة ذاتها ، إن لم تكن سببًا فى تشويه الحركة ودفعها بعيدًا عن هدفها الحقيقى ، بل وبحيث تقود الحركة إلى تفتيت مقوماتها ، وخلق التسيب فى عناصرها ؟

ولنبدأ بتسجيل مجموعة من الحقائق .

أول هذه الحقائق ترتبط بلحظة اندلاع الثورة الليبية . الثورة الليبية تعود إلى أواخر الستينات فى سبتمبر **1969** . لم يكن قد مضى على هزيمة حزيران يونيو **1976** أكثر من عامين عندما استيقظت العقول لتكتشف كيف أن كلاً منا ساهم بدرجة أو بأخرى فى تلك **المأساة التى كان على العالم العربى أن يدفع ثمنها غاليًا ، قيادة مندفعة ، وأعوان منتفعون متسلقون ، ثم مفكرون انقلبوا ليؤدوا وظيفة المهرج فى البلاط** ، لم يكن العقل العربى قد اكتشف بعد عمق المأساة إلا منذ عدة أشهر ، على وجه التحديد عندما بدأت حرب الاستنزاف ، ورأت تلك العقول الواعية ولمست كيف انتهت هزيمة حرب الأيام الستة بأكثر من استعمار واحد ، استعمار صهيونى فى الأراضى المحتلة ، واستعمار أمريكى ، وقد بدأت تتولد القناعة بأن علينا أن نسعى راكعين إلى واشنطن ، لترفع عنا جزءًا من المأساة ، وذلك لو افترضنا على أنها أهم مظاهر الخنوع والتبعية ، و« استعمار» سوفياتى مرده الحاجة إلى الدفاع عن الذات .

فى ذلك الإطار النفسى انفجرت ثورة سبتمبر وهى تعلن أنها لم تكن مجرد انقلاب عسكرى ، أو تغيير فى أداة الحكم ، أو إعادة لتشكيل نظام سياسى ، بل إنها تملك إطارها الأيديولوجى الذى يجعلها تمثل استمرارية ثابتة مع القدرة المصرية السابقة على هزيمة **1967** إنها تعلن بصراحة أن تلك الهزيمة لم تمنع من أن جوهر ثورة يوليو يمثل الأمل فى مستقبل التماسك العربى .

كذلك وهذه الحقيقة نعترف بها ، فإن الثورة الليبية أعطت تلك الدولة فاعلية لم تكن تملكها ليبيا حتى الستينات لم تكن تمثل أى كيان سياسى ، ولم يكن يُنظر إليها إلا على أنها

أرض فضاء قد فرغت من كل فاعلية سياسية ، خلال فترة الخمسة عشر عامًا التى تلت استيلاء العقيد القذافى وأعوانه على السلطة استطاعت ليبيا أن تحتل مكانة معينة فى نطاق التعامل الدولى ، فهى قد أمّنت حدودها الجنوبية ، ووضعت حدًا لأن تكون تلك الحدود هدفًا سهل المنال . وهى قدمت مساعدات معيّنة للحركات الإسلامية ، وانطلقت بهذه الخصوص من مبدأ تصدير الثورة ، الذى سوف يتلقفه الخمينى فيما بعد ، وسوف يجعل من أساس تعامله مع الوطن العربى ، وهى قد حاولت تأمين وتوسيع نفوذها فى حوض البحر الأبيض المتوسط فى إيطاليا وفى مالطة على وجه الخصوص ، وبغض النظر عن النجاح أو الفشل فإن أكثر من سياسى واحد لم يتردد فى أن يهاجم على صفحات الجرائد اليومية الحكومة الإيطالية والقيادات الإيطالية إزاء الاستسلام للغزو الليبى المقنّع .

أضف إلى ذلك أننا لا بد وأن نعترف بأن الثورة الليبية حاولت أن تصبغ وجودها بأهداف اجتماعية وفكرية تعبر عن تصور جديد وغير معتاد للتراث الإسلامى .

المشكلة بالنسبة للعقيد القذافى ، هى البحث عن عناصر التخريب فى التناسق الأصيل، الذى بدأت به وانطلقت منه الدعوة الإسلامية ، وهو يبحث فى تعاليم القرآن عن تلك المتغيرات التى تقود إلى إفساد الجماعات بحيث يستطيع بناء إطار واضح للتعامل الاجتماعى والاقتصادى ، ورغم أنه يعلن أن الدين ما هو إلا تأكيد لقانون الطبيعة ، إلا أنه ينتهى بالقول بأن الإسلام هو نظام للتنقية والوصف أكثر منه لوضع قواعد الممارسة ومجازاة الإخلال بتلك القواعد ، وهو عقب قفزات متعدة ينتهى لتأكيد أن الديمقراطية ليست مجرد إجراء حكومى أو انتخابى ، وإنما هى تجمع الجماعة لتصير مسؤولة عن نفسها ، ولتحدد هى بذاتها بأسلوبها فى الرقابة والعقاب .

لسنا فى مقام تقييم هذه الفلسفة ، أو مناقشتها ولكننا نعلم أنها محاولة للاجتهاد ، وتقاليدنا تأبى علينا إلا أن نحترم أى محاولة بهذا الخصوص ، حتى لو تضمنت الكثير من الشطحات .

أمر آخر يجب أن ندخله فى الاعتبار ، ونحن نتحدث معك على هذه الصفحات **سيدى العقيد** : أنت تقول : إنك زعيم ثورة ولست فقط رئيس دولة ، أنت قائد حركة سياسية ولست مجرد حاكم أمة ، ولو كان علينا أن نحدثك كرئيس دولة أو كحاكم سياسى لما كنا قد تطرقنا إلى مسؤوليّاتك الفكرية والتزاماتك القومية ، ولكننا نعلم أنك لست فقط قائد ثورة بل تعلن نفسك خليفة عبد الناصر ، وأنك تسير على نهج ثورة 23 يوليو ، وهى من أكبر الحركات القومية الوحدوية فى تاريخ المنطقة ، وبغض النظر عن فشلها من عدمه فهى التى أيقظت المد القومى ، ودفعت به إلى آفاق ما كان أحد يحلم بها أو يتوقعها ،

فقط من هذا المنطلق تسمح لنا بأن نفتح صفحة الحساب ، ونطالبك بمراجعة المواقف وتصحيح الأخطاء .

هذه جميعها حقائق نبدأ فنسلم بها ، وهى جميعها نقاط إيجابية لصالح ثورة الفاتح ولقائدها ، ولكن السؤال الذى نطرحه حاليًا ، والذى يمثل فى قناعتنا أخطر محور للتعامل مع القيادات العربية المسؤولة وهو التالى : أين الوحدة العربية فى حركتكم ؟ ماذا فعلت تلك الثورة فى سبيل تدعيم مفهوم القومية العربية ؟ إن هذا هو جوهر منطق التعامل وعلينا عندما نناقش أى واقع سياسى ، أن نجعل نقطة البداية هى هذا الجوهر ، لا يجوز أن نقتصر على الملامح الخارجية ، ولا يجوز أن تخدعنا المعارك الجانبية ، وعلينا أن نذكر القارئ بأننا نحن دعاة القومية العربية قد درجنا على عدم الثقة فى أساليب ومخططات القوى الأجنبية . **نحن نعلم أن وحدتنا سوف تهدد المصالح الأجنبية ، وهى مصالح ضخمة بعيدة المدى ، ونحن نعلم أيضًا أن أساليب هذه القوى تنبع من مفهومين : ظاهرها البراءة بحيث لا يشك الواحد منا فى المنطلق التخريبى ، الذى تنعبث منه عملية الاختراق ، وهى تأتى من حيث لا نتوقع** ، من كان يتصور أن جامعة الدول العربية ، هى موجة خلقتها وأمتطتها الدبلوماسية البريطانية ؟ ومن كان يستطيع أن يصدق أن الدعاية البريطانية فى مصر وبقصد تشويه العقل المصرى القيادى ، كانت تُنشر باللغة الفرنسية وفى صحف موّلتها وأعدتها لهذه الغاية السفارة البريطانية ؛ لأن الطبقة المثقفة فى مصر آنذاك كانت تتكلم باللغة الفرنسية ؛ لأن هذه هى لغة الطبقات المثقفة فى مصر وذلك فى وقت كانت فيه الأمة العربية لا تمثل إلا أهمية محدودة ، فما بالنا اليوم وقد أضحت الأرض العربية محور الصراع الدولى ؟ وقد تقدمت إمكانيات التغلغل فى العقول والأفئدة وفى تطويع القيادات ؟ نعم إن قلاعنا مهددة من الداخل ، قبل أن تكون موضع تهديد من الخارج ، هذه أيضًا حقيقة يجب أن نقف إزاءها بكثير من التأمل .

ب – التطور الوحدوى يملك مقدماته ومتطلباته الأساسية ، وهى تدور حول ثلاثة متغيرات أساسية لا يمكن التخلى عن أى منها :

أولاً : التحول الديمقراطى الذى أساسه تدعيم كرامة الفرد ، واحترام حرياته وتعميق ثقته فى ذاته فالتطور الوحدوى هو تعبير عن المفهوم الديمقراطى على المستوى الجماعى ، الذى بدوره لا يمكن إلا أن ينطلق من نظرة شاملة لاحترام الكرامة الإنسانية .

ثانيًا : للغزو الفكرى والأيديولوجى لا من منطلق من مبادئ مبهمة غامضة مجهلة ، ومفاهيم فضفاضة لا تصلح إلا للغة الغوغائية تستهدف النيل من ذلك الجوهر المحدد الذى تنصب عليه الحركة وهو خلق الإرادة الواحدة .

ثالثًا : خلق الترابط بين القوى المؤمنة والمساندة فى حمل رايـة الصراع فى سبيل تحقيق الوحدة ، وبغض النظر عن أى اعتبار آخر ، الوحـدة هدف حركة ، ومن ثم فحتى تتحقق الوحدة يجب أن تخـتفى جميع الأهداف الأخرى ، أو تنـتقل إلى المستوى الثانى لـلتعامل السياسى ، الوحـدة رداء يجب أن يجمع ويحتضن كل من آمن بهـا ، حتى ولو خالفنا فى بعض عناصر التصور والإدراك السياسى غير المرتبط مباشرة بمفهوم الوحدة .

نحن نسلم بأن الحركة الوحدوية لست هى الحركة القومية ، كلاهما يختلف عن حركة التحرر الـسياسى ، ورغم أنه فى الواقع العربى نجد هذه المفاهيم الثلاث تتعانق فى آن واحد حيث القـومية العربيـة تفرض وحدة المجتـمع العربى ، وحيث لا يمكن تصـور الدفاع عن القومية العربية دون جعل نقطة البداية ، هى عـملية تحرير جميع أجزاء الأرض العربية التى تدنسهـا الأقدام غير العـربية ، إلا أننا حتى لو قـبلنا فرضًا أننا سوف نسـتبعـد من حديثنا القومية العربية وعناصرها ، ونقتصر على مفهوم الوحدة العربية وعناصره ، فهل نستطيع أن نفهم سياسة الرئيس القذافى منذ وصوله إلى السلطة ، وبصفة خاصة خلال الأعوام الخمسة الأخيرة وحتى هذه اللحظة ؟

تساؤلات فى محلها :

لا نريد أن نناقش جوهر فلسـفة العقيـد القذافى ، فهو أولاً رجل حـركة ، وعليه أن يبتعد عن الفلسفة ومشاكلها ، ولا يجوز أن تـخدعه تلك المجموعة من الصفّاقة والمتسلقين الذين أحاط بهم نفسه ليزينوا له قدراته الفكرية والتنظيرية ، ولعل هذا يدخل فى دائرة تلك المسرحيات التى تدعو إلى الضحك أكثـر منها إلى البكاء ، والتى ارتبطت بالثورة الليبية منذ مراحلها الأولى ، نحن لا نشك فى نـقاء الثورة الليبية منذ مـراحلها الأولى ولكننا لا نزال نتساءل عن حقيقة ذلك النقاء ؟ بل ونطرح بخصوصـه أكثر من استفهام واحد ، خمسة أيام عقب الثورة وهذا الرئيس « بومدين » يشد رحاله إلى بنغازى ، ينقل إلى القادة الجدد تأييد الثورة الجـزائرية ، ومع ذلك لم تمض عدة أشهر على تلـك الزيارة إلا وطرابلس تعلن أنها لن تحضر مؤتمر وزراء اقتصاد بلاد المغرب ، والذى كان يهدف لبناء المغرب العربى الكبير ، لماذا ؟ لم يمض على ذلك وقت كثـير ليعلن القذافى فى أكـتوبر من عام 1971 : « لقد آن الأوان لأن تكلف الجزائر نفسـها بأن تحدد موقفهـا ، إن سلوكها بخصوص الوحـدة العربية ومعركة المصير موضع شبهة » .

علاقات الـقذافى بالرئيس « بورقيبـة» لم تخرج عن هذا الإطار من الاستخـفاف بكل مقدسات التقارب العربى. الحـوار العلنى الذى شهدته تونس أثناء زيارة القذافى لها والذى دار بينه وبين الرئيس الحبيب « بورقـيبة » ظل موضع الهزء والسخرية من الصحـافة العالمية

ولفترة غير قصيرة ، أما عن أحاديث الرئيس القذافى فى الاتحاد الاشتراكى فى مصر ، أثناء محاولات الوحدة خلال فترة حكم السادات فهى معروفة وليست فى حاجة إلى تفصيل .

ولكن لنقتصر مؤقتًا على موضوعنا : **التصور الوحدوى فى سياسة ليبيا الثورية** .

جـ - لو عدنا إلى المقومات التى بدأنا بها كعناصر أساسية للتطور الوحدوى لما وجدنا موضعًا لأى منها فى تطور السياسة الليبية .

السياسة الليبية عملت على أن تنقض على كل وجود ديمقراطى فى المجتمع الليبى ، بل إنها انتهت بأن دعّمت من حكم الغوغائية واستخدمت تلك الغوغائية وسيلتها للتمويه على الأهداف ، التى كانت يجب أن تسيطر حقيقة على سياستها ، ولم يعد من الممكن أن نبرر ذلك ، بأنه عدم خبرة أو سطحية أو سذاجة فى التعامل ، لقد أثبت العقيد القذافى أنه يملك الكثير من الحنكة ، وقد برز ذلك واضحًا فى تعامله مع فرنسا ، ليس فقط حيث استطاع أن يخلق التناقض بين السياسة الفرنسية والسياسة الأمريكية ، بل إن الرئيس القذافى استطاع أن يوقع الرئيس الفرنسى «ميتران » فى مطب ، لم يخرج منه حتى هذه اللحظة ، فالتظاهر بالسذاجة والبراءة ، لم يعد قادرًا ولا كافيًا لتبرير الأخطاء .

ولعل هذه الملاحظة تدعو إلى طرح تساؤل آخر . ما هى حقيقة هذا الإطار الفكرى والأيديولوجى ، الذى تنطلق منه الثورة الليبية ؟ الحديث عن الإسلام ليس موضع مناقشة ولكن الخلط بين المفهومين هو الذى يطرح التساؤلات ، كل من هذين المفهومين له مقوماته وله مستواه ، إن الوحدة القومية هى الترابط بين أجزاء الوطن الواحد فى مواجهة أعداء ذلك الوطن حتى لو كانوا مسلمين ، والإسلام هو الانتماء الدينى فى علاقة أفراد تلك الجماعة ، بالقدرة الإلهية حتى لو كان بعض أعضاء الجماعة لا ينتمون إلى ذلك الدين لو تم دفع الإسلام ليشوه مفهوم العروبة ، وكذلك تم دفع مفهوم العروبة ليشوه مفهوم الإسلام ، وهو تعبير عن نقص فكرى ولكنه ينتهى بإضعاف الدلالة الحقيقية لكل منهما ، إن الخلط بين المفاهيم لا يمكن أن يكون إلا مصدره الجهالة أو سوء النية ، وقد آن الأوان لنفهم بوضوح كيف أن أحد أساليب الاستعمار [1] الفكرى والتسميم السياسى هى إذابة العروبة فى مفهوم الإسلام ، لقد حُطمت قديمًا الوحدة الإسلامية باسم العروبة ، واليوم يسعى خصومنا بإذابتها فى الإدراك الإسلامى ، وقد أثبتت السياسة الليبية استعدادها لأداء تلك الوظيفة بلا وعى ، عندما خرجت أخيرًا تحدثنا عن مفهوم الوحدة العربية الإفريقية ، ورأينا فى موضع سابق كيف أن ذلك يحيل مفهوم الوحدة إلى نوع من التعاون الدولى ، كذلك فإن الحديث عن الوحدة الإسلامية التى تتعدى التضامن القومى ، يحيل هذه الوحدة

(1) رحم الله حامد ربيع لقد أدرك ووعى ونبّه ولكن : وما أنت بمسمع من فى القبور .

إلى نوع من التعاطف الروحى دون أن يرقى إلى الرابطة السياسية ، التى تغلف الانتماء القومى ، وهل قامت الوحدة الإسلامية التقليدية التى عرفتها أمتنا فى تاريخها العربى القديم ، بقتل التعدد اللغوى ؟ على أن الأمر الأكثر خطورة ونحن بصدد الثورة الليبية وهو ما يزيد من ملامح التناقض والتفسخ فى هذا الإطار الفكرى ، إن قادة هذه الثورة يزعمون عن قناعة بأن مدركاتهم يستمدونها من الأصول الفكرية لثورة عبد الناصر [1] فهل مفاهيم عبد الناصر كانت تشكك فى هذه الأولويات ؟ وهذا يقودنا إلى نتيجتين يجب أن نقف منهما موقف المناقشة والحساب :

- أول هذه النتائج ترتبط بهذا الإنفاق الغريب للثورة العربية فى غير موضعها . المال الليبى يُنفق فى كل مكان ، إلا فى تلك المواضع التى كان يجب أن ينفق بخصوصها ، بناء مطار دولى فى « جرينادة» ليستطيع استقبال الطائرات السوفياتية المحملة بالسلاح ، المعونات السخية للحركات الثورية فى السلفادور ، تقديم الهبات للثوار فى أيرلندا هذه ليست إلا بعض النماذج .

- وثانى هذه النتائج موقف الرئيس القذافى من « ثورة» الخمينى ، كيف يمكن تبرير المساندة الليبية لحركات العنف والاعتداء الصادرة عن إيران ، وهى تعلن عن إرادة صريحة وقاطعة تتناقض مع أهداف القومية العربية ؟

وهنا نصل إلى قمة المأساة ، ولكننى سوف أظل أصرخ : سوف أظل عربيًا ، وللحديث بقية إنه ذو شجون »» .

(1) لم يكن للفكرة الإسلامية اعتبار عند جمال عبد الناصر ، لعبة الأمم وعبد الناصر .